البيت

البيت هو الوطن الصغير، هو الدفء والأمان والاستقرار، المكان الذي يستر عرينا، ويجمع شملنا بعد ساعات طويلة من العمل خارجه، وهو الذي نستقبل فيع ضيوفنا، فيه نولد وبه نموت، وبين هذا وذاك لنا أن نعيش حياتنا كما نريدها نحن، بعيداً عن العيون والآذان، البيت هو نفسه، سواء كان قصراً أم (خصاً) في القرية أو في المدينة في الجبل أم في الوادي.

وقد تعامل المثل الشعبي مع البيت مطلقاً من كل هذه العبارات، بصفته المعنوية أولاً من جون أن يغفل الاعتبارات المادية لهذا البيت.

فقد قرن السعادة بالنسبة للرجل في ثلاث ركائز أساسية، هي (الدار) الوسيعة والمرأة المطيعة والفرس السريعة، فإذا ما توفرت هذه المتطلبات الثلاثة، فإن الرجل سيكون في غاية السعادة، ويبدو أن الرجل المعني هنا، هو الرجل الذي يتمتع بشيء من سعة الرزق، وليس هو الفلاح الكادح، ربما يكون الإقطاعب أو التاجر أو شيخ العشيرة أو ما شابه هذه الحالات واقترب منها، فالدار الواسعة هي التي تبعد الضيق عن نفس صاحبها، وتمنحه حرية أكبر في الحركة بالنسبة لعائلته أو ضيوفه، ومن يريد أن يكون مثل هؤلاء عليه أن يوسع باب داره لأنه (اللي بدو يصير جمال بوسع باب داره) فالجار الواسعة، أو تلك التي لها باب واسع، يمكن أن تدل من الوهلة الأولى على طبيعة عمل صاحبها، ومكانته الاجتماعية.

فالمثل الشعبي لم يقبل من صاحب الدار الضيقة أو يطلب منه، أن يكون (قائداً) اجتماعياً، مما يؤكد طبيعة الفئة أو الشريحة التي وقفت إطلاق مثل هذه الأمثال وتعميمها بين الناس، لتكون بشكل أو بآخر فلسفة اجتماعية لأولئك المتنفذين اقتصادياً واحتماعياً.

والدار أو البيت، هو المكان الذي يعكس صورة صاحبه، وهو المكان الذي له أن يفعل في داخله ما يريد، بعيداً عن العيون، لذلك حرص المثل الشعبي على الدعوة لنظافة

البيت وترتيبه، بغض النظر عن طبيعته العمرانية، حيث قال (غسل وجهك ما بتدري مين بنظره.. ورتب بيتك ما بتدري مين بعبره) فالبيت النظيف يعكس وعي صاحبه.

فيما كان للمثل رأى آخر في البيت، من وجهة نظر الفلاح الفقير أو العامل الكادح، الذي ينطلق من ضمير مرتاح في علاقته بالآخرين، حيث أن (بيت الضيق يتسع مية صديق) إذا كانوا متكافئين في الموقع والموقف، ومتجانسين في علاقاتهم الاجتماعية.

وللبيت حرمته ومكانته الاجتماعية التي لا يجوز تجاوزها أو القفز عنها، بل يجب احترام البيت وأصحابه، مهما كان البيت متواضعاً، ومهما كانت مكانة أصحابه الاجتماعية، إلى درجة أن المثل قال: (اللي بدخل بيت العوران بتنعور عينه) وقوله (دارهم ما دمت في دارهم).

وأكد المثل في أكثر من جانب، على ضرورة الاهتمام بالبيت والحرص على سمعته والدفاع عنه، باعتباره المملكة الصغيرة لكل واحد فينا، مؤكداً أن من يتهاون في علاقته مع بيته، سيجني عواقب وخيمة ترتد عليه، ويكون من الصعب معالجتها أو الحد منها، وفي هذا يقول المثل: (الدار بلا باب مأوى للكلاب) والباب هنا يمكن أن يدل على نوع من الحماية التي يجب توفيرها للدار وأصحابها، وقوله أيضاً: (مين بجيب الذيب ع باب داره) أي لا أحد يمكن أن يفرط في حرمة بيته والدفاع عنه، وقريباً من هذا، يؤكد المثل قائلاً (بدوي اندل على باب دارك غيره) كناية عن وقت وطبيعة الضيوف الذين يمكن استقبالهم في البيوت، حتى لا تضيع حرمتها.

وللبيت أسراره التي لا يجوز إشهارها، يجب المحافظة عليها مهما كانت صغيرة حيث يمكن لأي منا أن يتعامل مع المثل القائل (اطحن ع سبع طواحين واخبز على جدران دارك) لكي يبقى وضعك الاقتصادي والمعاشي مستوراً وغير مكشوف للآخرين.

ولأن البيت هو المكان اللائق للحياة الحرة الكريمة، فإنه (ما في حدا بيعرفش باب داره)، ويجب التمسك بالبيوت وعدم التنازل عنها، لأن (المنازل أن أعطوها لغير أهلها ذلت) فهي تفرح لأهلها وتبادلهم السعادة والولاء والانتماء أيضاً.

ولأن العلاقة مع البيت، هي علاقة دائمة وليست عابرة أو مؤقتة، فقد أكد المثل على ضرورة التعامل الحسن مع الجيران، لكي تظل علاقتك ببيتك ومحيطك علاقة طبيعية، بعيدة عن التوتر والدخول في المشاكل أو المهارات، لذلك أكد على البحث عن (الجار قبل الدار) في الوقت الذي نبه إلى نوع من العلاقات الواعية في التعامل مع الجيران، فقال (سكر بيتك وأمن جارك)، وقوله أيضاً: (فتش بيتك سبع مرات قبل ما تخون جارك).

فهو هنا يؤكد على ضرورة تنمية العلاقات الاجتماعية بين الجيران، بما لا يذهب إلى كيل الاتهامات الباطلة، أو التي تحدث جرحاً أو خدشاً في النفوس.

ونبه المثل كذلك إلى دور المرأة في البيت، وأهميتها في إدارة شؤونه، وحذرها من وقوع المكروه بقوله: (خراف ثنتين خرب بيتين)، في الوقت الذي انحاز فيه إلى الدور الرجالي في البيت على حساب دور المرأة، حين قال: (بيت الشباب عذاب وبيت البنات خراب) وكذلك (بيت رجال ولا بيت مال) لأن الرجال هم أكثر خلود من المال، وهم قادرون على الإتيان بالأموال وإنعاش البيوت، على اعتبار أن مسؤولية الصرف على البيت هي واحدة من اختصاصاتهم الرئيسة.

ولأن (البيوت أسرار) فيجب المحافظة عليها ولا يجوز اجتماعياً وأخلاقياً أن نتحدث عما نراه في بيوت الآخرين، كما جاء في المثل الشعبي (دخلنا داركم وشفنا فشاركم وعرفنا عشاكم من عشا حماركم)، فهذا الذي رأيناه وعرفناه وسمعناه، يجب أن يبقى سراً، ولا يجوز نقله أو إشهاره بين الآخرين.

وكان للمثل دور في التوعية الصحية لطريقة بناء البيوت لأن البيوت اللي بتدخله الشمس بدخلوش طبيب، وهذا وعي صحي أكد عليه المثل الشعبي، لأن الشمس تسهم في نظافة البيوت وتحارب الرطوبة والحشرات والبرد أيضاً.

وقد تهكم المثل على الذين يسمحون لأنفسهم بالتصرف نيابة عن أهل البيت بقوله (الدار دار أبونا وأجو الغرب يطحونا) مؤكداً في الوقت نفسه على التقوى والتعامل بالأخلاق، كي تدوم البيوت على أصحابها، لأنه لا بد أن يكون (بيت الظالم

خراب) و(إذا كان بيتك من كزاز ترميش ع الناس حجارة) ولأن (كل بيت إلو مصرف) فيجب على الجميع أن يكونوا متحابين متعاونين، خاصة الأقارب والجيران، لأن العيوب فينا جميعاً محذراً من الغفلة والسذاجة التي تنطبق على (اللي غاب يوم وقال وين باب الدار).

هذه مجموعة من الأمثال التي تمحورت جميعها حول البيت والدار، وهما يعنيان المفهوم نفسه عند عامة الناس، وتحدثت عن الكثير من الجوانب التي تعني بالبيوت وحياة أصحابها.

فالبيت هنا ممثلاً لجميع البيوت هو الوطن الذي ننتمي إليه ونحس بالحنيت والارتباط الروحي والمعنوي في كل ما يمثله من قيم وانتماء.

فمن منا يستطيع أن يقيم خارج بيتع؟

ومن منا لا يجرفه الحنيت إلى بيته؟!

وليس بالضرورة أن يكون البيت الأول، بل البيت الحقيقي الذي يشعر فيه المرء بالأمان والانتماء!!.

الجار

ارتبط الجار في ذهن صائغ المثل الشعبي بالجار أو البيت، إلى درجة أنه حدد السعادة والطمأنينة في البيت بمدى العلاقة مع الجار، وإذا كان المثل قد دعى إلى حسم هذه العلاقة وتحديدها بقوله:

إن كرهت جارك غير باب دارك

في دعوة واضحة إلى رسم العلاقة مع الجار منسجماً هذا القول مع مثل آخر قد يكون أكثر شمولية واتساعاً، ويتعلق بجوانب أخرى ومسلكيات مختلفة في مسار الحياة بقوله:

الباب اللي بيجيك منه الريح سدوا واستريح

لكن المثل كان واضحاً من البداية، في تحذير الجار ودعوته إلى اختيار جاره، مفضلاً الجار على الدار في قوله:

الجار قبل الدار

السكان قبل المكان

لأن السعادة التي يحققها البيت لساكنيه، قد تتحول إلى مشاكل دائمة في وجود جار سيء، ذي نوايا خبيثة.

ودعا المثل في كثير من المواقف للتعامل الإيجابي الواضح مع الجار، الذي يفترض أن يكون طيباً ومتسامحاً، لأن العلاقة معه علاقة غير عابرة، وهي مستمرة باستمرار الحوار معه.

جارك القريب ولا أخوك البعيد

ويجيء تفضيل الجار القريب على الأخ البعيد اعتماداً على مرجعية دينية مهمة، اعتمد عليها صائغ المثل، وهي تلك التي جاءت في القرآن الكريم أو في الأحاديث النبوية الشريفة وترجمها المثل بقوله:

النبى وصى ع سابع جار

ومادامت القضية مرتبطة بوصية النبي، فإن الحفاظ عليها يخرج من إطار العلاقة الاجتماعية والأخلاقية، إلى إطار تنفيذ الوصية، باعتبارها مرجعية دينية.

وتظل العلاقة بين الجيران علاقة تحتفظ بمبررات وجودها واستمرارها، فهي تحمل في طياتها مصلحة مشتركة للطرفين، ليست أقلها مشاركة الجار لجاره في الأفراح والاتراح، ولذلك فإن صائغ المثل الشعبي كان واضحاً في صياغة حدود هذه العلاقة وتحديد ملامحها، ليعطيها جانباً من (القدسية) في التعامل:

قال مين أدرى بحالك، قال ربك وجارك

ما بعلم بحالك غير ربك وجارك

جارك مثل أخوك، أن ما شاف وجهك بشوك قفاك

لولاك يا جارتي لا نفقعت مرارتي

الجار لو جار

وذهب المثل إلى تحديد واضح في العلاقة، تصل إلى حدود التكافل الاجتماعي بين الجيران، ليس في الكلام الطيب فقط بل ما يتعدى ذلك إلى المصالح الاقتصادية المتبادلة بين الطرفين.

رغيف برغيف ولا يبات جارك جعان

تمنى الخير لجارك بتشوفه في دارك

وبقدر ما دعا المثل إلى تمنين العلاقة بين الجيران، فإنه حذر من الاتهامات الباطلة غير المستندة إلى حقائق، لأن ذلك سينسف العلاقة بين الطرفين، ويحولها من علاقة إيجابية إلى علاقة عداء، ولأنه حريص على حسن الجوار فقد قال:

سكر بيتك وأمن جارك

لكن المثل نفسه دعا إلى التعامل (بأضعف الإيمان) بين الجيران بعضهم البعض، إذا لم يستطيعوا بناء علاقات إيجابية متطورة بينهم، وذهب إلى التأكيد على أن العلاقة في حدودها الدنيا بين الجيران، هي أفضل في كل الأحوال من العلاقات السلبية والمتوترة:

صباح الخير يا جاري.. أنت بحالك وأنا بحالي

وإذا كانت العلاقة بين الجيران ليست دائماً على ما يرام، فإن بعض صائغي المثل الشعبي عبروا عن حدتهم وغضبهم من تصرفات بعض الجيران، رافضين لبعض المسلكيات المتطفلة والغريبة عن عاداتنا وتقاليدنا، التي تربى عليها المجتمع:

أنت جار ولا كشاف أسرار

الحكي إلك واسمعي يا جارة

ووصل إلى درجة القطيعة في بعض الأحيان، وإلى الرفض الكلي لأي علاقة مع الجيران، مهما كانت، حيث يقول:

برميه في الحارة ولا بعطيه للجاره

يبجو واضحاً أن صائغ المثل الشعبي كان واعياً في ترجمته للعلاقة التي يجب أن تقوم بين الجيران، وكان في معظم الأمثال التي تناولت هذه العلاقة داعياً للفضيلة والأخلاق والتعامل الإيجابي بين الجيران، الأمر الذي دفعني للتأكيد، أن عدداً ليس قليلاً من هذه الأمثال قد قيل على لسان الفلاحين والفقراء الذين يعنيهم أن يكون المجتمع الذي يعيشون فيه، مجتمعاً فاضلاً، وهذا لا يعني أن الآخرين يدعون إلى عكس ذلك، بل لأن الفلاحين ليس لديهم ما يدفعهم إلى زعزعة أخلاقيات وتقاليد المجتمع الإيجابية، مع التأكيد أن مصلحتهم تظل دائماً مع مجتمع فاضل ذي أخلاق حميدة، في الوقت الذي يجد فيه الأغنياء والإقطاعيون ما يمنعهم من إقامة علاقات إيجابية مع جيرانهم لاختلاف مستوى المعيشة أحياناً بين الجانبين، وبالتالي فإنهم معنيون باستمرار الأخلاقيات التي تخدمهم في علاقاتهم الاجتماعية، التي هي في الوقت نفسه علاقاتهم الاقتصادية أيضاً

مفهوم الجمال

لم يتفق الناس على تعريف واضح للجمال، أو تحديد لمواصفات بعينها عند المرأة الجميلة، فالجمال موقف شخصي في الغالب، لا ينفي بأي شكل من الأشكال وجود اتفاق حول مواصفات محددة، عند امرأة معينة، يمكن أن توصف بالجميلة.

والشعر العربي الذي يعد مرجعاً مهماً في تعريف الجمال والنظرة إليه، ظل غامضاً في تحديد موقفه، معبراً بشكل أو بآخر عن وعي الشاعر ونظرته واستلهامه لموضوع الجمال عند المرأة، فقد تغزل الشعراء بالكثير من مفاتن النساء، دون تغليب واحد على الآخر فمنهم من تغزل بوجهها وعينيها وشعرها، ومنهم من ذهب إلى رسم صور جميلة لجسدها وقوامها وسيقانها وصدرها وغير ذلك من مفاتنها، الأمر الذي جعل الباب مفتوحاً أمام الكثير من الصور الجمالية، لأن الرجل بشكل عام، والشاعر بشكل خاص، ينظر للمرأة بعينه، ويتعمد أن يرى فيها ما يريد أن يراه هو، لا ما هو موجود لديها.. وفي هذا ينطبق قول المثل الشعبي:

القرد في عين أمه غزال

أي أن كل امرأة في عين عشيقها أو حبيبها أو ذلك المعجب بها، هي الجميلة دون غيرها، وقد أكد الحديث النبوي الشريف على أن جمال المرأة واحد من الدوافع المهمة التي تدفع بالرجل للزواج منها أو الاقتران بها، غير أن مفهوم الجمال هنا ظل عائماً، دون تحديد ملامح خاصة أو مواصفات بحد ذاتها، غير أن الحديث النبوي الشريف ذاته غلب موضوعه الدين والمال على موضوعة الجمال التي جاءت في ترتيب متأخر عن سابقاتها.

والمثل الشعبي الذي حاول الانحياز للجمال، ذهب صائغوه إلى وضع أسس مقبول في المجتمع، تكون المقارنة معها سهلة وواضحة، فوجدوا في تعبير (البيضة والسمرة) ملامح وقواعد لتحديد مواصفات الجمال عند المرأة، مع ما يشوب مثل هذه القاعدة من اختراقات، ومواقف ليست بالضرورة صائبة أو مقنعة، وفي اعتقادي أن تحديد مثل هذه

القاعدة هي محاولة ساذجة للخروج بمفهوم واضح للجمال، بعيد عن التعميم وقريب من الإقناع.

ولذلك ليس غريباً أن يكون المثل الشعبي قد انحاز بشكل واضح إلى جانب المرأة ذات البشرة البيضاء، باعتبارها الأجمل من منافستها ذات البشرة السمراء، مع اعتقادي أيضاً أن مثل هذا الانحياز لم يكن تعبيراً عن موقف عنصري أو عدائي من المرأة ذات البشرة السمراء، وإنما استطيع أن أرد لسبب نفسي خالص، يعود إلى رغبة صائغ هذا المثل بالاقتران أو التقرب من امرأة لا يستطيع الاقتران بها في الظروف العادية، فالفلاحون الذين يقفون في أغلب الظن وراء صياغة وتعميم مثل هذا النوع من الأمثال، ينظرون إلى نسائهم، وهن في الغالب من ذوات البشرة السمراء، نظرة فوقية، فوجودهن إلى جانب رجالهن وقتاً طويلاً تحت أشعة الشمس في المزارع والحقول أعطى بشرتهن هذا اللون، بعكس النساء الأخريات، وهن في الغالب من بنات المدن، أو العائلات الاقطاعية، البعيدات عن لهيب الشمس والعمل في الحقول، ومن هنا فإن المثل الشعبي أعطى حكمه القاطع على أن المرأة ذات البشرة البيضاء هي الأجمل، وبالتالي تتقدم على منافستها ذات البشرة السمراء في اختيارات الرجال، مبتعداً عن الخوض في تفصيلات أخرى، كالأخلاق وجمال الروح وغير ذلك من المواصفات.

فهل يكفي أن يكون وجه المرأة (أبيض) لتفوز بمقاييس الجمال؟

ويبدو مثل هذا التساؤل ضرورياً إذا ما عرفنا أن وجه المرأة هو ما يمكن أن يراه الآخرون منها، وخاصة المرأة الفلاحة.

ويعرف الناس أن الشعراء الشعبيين تغنوا كثيراً بهذا النوع الساذج من مواصفات الجمال عند المرأة في زجلهم وأشعارهم، خاصة في ليالي الأعراس، حتى بات معروفاً للجميع أن موضوعاً مثل موضوع (السمرة والبيضة) سيكون أحد المواضيع الأساسية في تنافس الحدائين، حيث يذهب كل واحد منهم إلى إشهار محاسن من يتبناها، وذم منافستها، وغالباً ما كان الناس في تلك السهرات ينحازون إلى المرأة ذات البشرة البيضاء.

ومثلما انحاز الفلاحون وغيرهم لذوات البشرة البيضاء، فإن المثل الذي عبر عنهم في الغالب، انحاز هو الآخر لهذا النوع من النساء، إذ نراه في كثير من الأحيان يتنازل عن بعض المواصفات والمزايا المطلوب توفرها عند المرأة، لمجرد أن تكون بيضاء البشرة، فقد قال:

خذها بيضة ولو أنها مجنونة

مقدماً بعد ذلك مزيداً من التنازلات حين يقول في موقع آخر:

فص المليحة مالوا ريحه

و(المليحة) هنا هي بالضرورة بيضاء البشرة، التي انحاز إليها المثل الشعبي.

ولعدم وجود مواصفات محددة للجمال، فقد المثل الشعبي في تناقض واضح، عبر عن التناقض ذاته الذي يعيشه صائغة هذا المثل ومروجوه، ففي الوقت الذي تخلى فيه عن موقفه السابق نراه يقول:

العقل زينة واللي بلاه حزينة

والحزينة هنا يمكن أن تكون من ذوات البشرة البيضاء أو السمراء، وفي هذا يكون المثل الشعبي قد حدد بوضوح واحداً من مواصفات الجمال عند المرأة هو (العقل الراجح) لكنه لم يلتزم كثيراً بهذا الموقف، وظل مرتبكاً متردداً متناقضاً في العلاقة مع المرأة الجميلة.

وإذا كان المثل حاول إنصاف المرأة ذات البشرة السمراء حين قال:

حب حبيبك ولو كان عبد أسمر

أي أن قلب العاشق هو الذي يحدد مواصفات الجمال المطلوبة عند المرأة التي يحبها، لكنه لم يستمر على هذا الموقف، وعاد ينظر إلى تلك المرأة بعين السخرية اللاذعة حيث يقول:

مهما اشتغل جوز السمرة بشتري لها بودرة وحمرة

وتبدو حالة الارتباك والتناقض واضحة تماماً حين يشير المثل بشكل لا يقبل الشك:

موش كل بيضة شحمة ولا كل سمرة فحمة.

وفي هذا نراه يقدم تنازلاً جديداً، ويترك لنفسه مساحة للتراجع عن كل المواقف السابقة التي انحاز فيها للمرأة ذات البشرة البيضاء، ويبدو أن هذا المثل جاء انعكاساً لتجارب مريرة عاشها صائغو المثل الشعبي مع نساء (بيضاوات) لم يكن بنفس المواصفات التي حلموا بها وتمنوا وجودها في نسائهم.

وإذا كان المثل وضع العقل ورجاحته صفة من صفات الجمال، فإنه ذهب في مكان آخر إلى وضع مواصفات أخرى، في محاولة لتعريف الجمال وإيجاد خطوة عامة بين الناس للاتفاق عليها.

لا أنت أحمر مني خد ولا أحسن مني قد

شو تعمل الماشطة في الوجه البشع

الحلو حلو لو قام من النوم والبشع وبشع لو غسل كل يوم

وفي الوقت الذي وقف فيه المثل موقفاً رافضاً للجمال الزائف المصطنع، الذي لا يرتبط بجمال النفس الروح، فإنه أعلى من شأن الجمال الطبيعي غير المتكلف، الذي يظهر المرأة كما هي، دون رتوش أو إضافات، وذهب صائغو المثل إلى إدانة ظواهر التكلف في الجمال:

مشنشلات الحلق صيدات الإنذال

من بره رخام ومن جوه سخام

قرعة بتتباهي بنت خالتها

لكنه وقف موقفاً إيجابياً من ظاهرة الجمال الطبيعي، متعاملاً معها بوعي اجتماعي وأخلاقي واضح، وأن ذهب في الوقت نفسه لأدائه (الجميلات) اللواتي لا يقدرن جمالهن، ولا يتعاملن معه كشرط أساسي من شروط الحياة:

شوف المليح تسبيح

مرة حلوة بالأعمى خسارة

مين شاف خطوطك يا مرة الأعمى

عمر الزين ما كمل

وظل المثل يراوح مكانه دون أن يستطيع حسم موقفه النهائي أو الانحياز بالمطلق إلى فريق ضد آخر، وذلك بسبب عدم قدرته على الحياة تعريف واضح للمرأة القبيحة أو الجميلة، بسبب وجود عشاق ومعجبين لهذه الفئة أو تلك، بل أن المثل حاول (إمساك العصا من وسطها)، حين وقف وراء تعميم هذه المواقف بين الناس، تاركاً الحكم في النهاية لهم:

العورة لابن عمها

دور الدورة لو دارت وبنت العم لو بارت

ما فوله منقورة إلا إلها كيال أعور

وفي هذا نجده يسعى إلى إيجاد حلول لكل المشاكل أو المعوقات، محاولاً الإمساك بأكثر من بيضة في يد واحدة، وهذا ما جعل هذه الأمثال ومن يقفون وراءها عرضة للتناقض وعدم الانسجام في الموقف العام، غير أن هذا المثل انحاز للجمال في مواجهة الثروة في واحد من الأمثال الشائعة التي تحولت إلى نوع من الحكم في أفواه الناس:

يا ميخذ القرد على ماله، بروح المال وبيظل القرد على حاله

واعتقد هنا أن التناقض والإرباك الذي وقع فيه المثل الشعبي حيال تعريف الجمال والتعامل معه، هو في حد ذاته انعكاس لوعي صائغي هذا المثل اجتماعياً وفهمهم للمرأة وعلاقتهم بها، فظروف القهر، والحاجة الاقتصادية والتخلف الاجتماعي إضافة إلى الموروث الديني وغير ذلك من العوامل، جعلت الرجل ينظر للمرأة نظرة سطحية وبالتالي تأتي مواقفه منها سطحية وساذجة، دون محاولة قراءة البعد الجواني للمرأة، التي ظلت هي الأخرى بفعل عوامل القهر والاضطهاد المزدوج، عاجزة عن التعبير عن نفسها، أو تقديم شخصيتها كما ينبغي، بل رضيت بالدور الهامشي التابع، في مجتمع أصر على قمعها ومصادرة الكثير من حقوقها الإنسانية.

مفهوم المال

تعامل المثل الشعبي مع المال على أنه كل شيء يورث الثروة ويجيء بها، مع ما يلحق بهذه الثورة من عز وجاه وسلطة ونفوذ، فالمال هنا هو النقود الأراضي والمواشي والعقارات، وما يشابهها أيضاً.

ونستطيع هنا أن نجد حدوداً واضحة بين نوعين من الأمثال الشعبية التي تعاملت مع المال، من هذه الزاوية أو تلك:

- نوع صادر عن الفقراء الذين لا يملكون هذا المال.
- ونوع صادر عن الأغنياء أصحاب الثروة والجاه والنفوذ.

فإذا كان النوع الأول يحاول تخفيف وطأة الفقر، ويضع المال في مراتب لاحقة، مفضلاً عليه امتيازات أخرى، كالشرف والمبادئ والأخلاق، فإن النوع الثاني من الأمثال الشعبية أعطى المال الأولوية، وجعله صاحب الحل والربط في كل ما يتعلق باستمرار الحياة، مؤكداً أن المال يستطيع أن يغطي كل العيوب.

لنر هنا حجم الفرق في المعنى بين مثلين يتحدثان عن مفهوم المال، ولكن من زاويتين متناقضتين:

صاحب المال تعبان وقلة المال راحة

اللي معاه قرش بيسوى قرش

نلاحظ هنا أن الفقراء – إذا ما اعترفنا أنهم أصحاب النوع الأول من هذه الأمثال، قد انطلقوا في تفسير نظرتهم إلى المال، من موقف فلسفي مثالي، يبدو ضعيفاً أمام سطوة الحياة واحتياجاتهم، وأمام وظيفة المال في عصر تداخل فيه كل شيء، واشتبكت فيه كل الأطراف، ونلاحظ أيضاً أن الأغنياء – إذا ما اعترفنا بأنهم أصحاب النوع الثاني من هذه الأمثال – قد انطلقوا في تفسير نظرتهم إلى المال من نظرة مادية واقعية، ترتكز على أسس ومقومات معاشة على أرض الواقع، كان للمال من نظرة مادية واقعية ترتكز على أسس ومقومات معاشه على أرض الواقع، كان للمال فيها

حضور وسطوة وسلطة أيضاً، لذلك لا عجب إذا رأينا أن أمثال النوع الثاني أكثر قدرة على الإقناع، وأكثر تقبلاً من المتلقين، لأنها تدغدغ فيهم حاجة مكبوتة، وتنبههم إلى أهمية المال، ووظيفته، في الوقت الذي لا تلغي فيه احترام هذا النوع من هذه الأمثال، الذي يؤكد العفة والنزاهة، لكن هذا، يظل بحاجة إلى ما يحصنه، وهو هنا توفر الحد الأدنى من المال لسد الحاجة الشخصية ومتطلبات الحياة الضرورية، بما يبعد صاحبها عن الحاجة التي يمكن أن تؤدي به إلى طريقين، ترفضهما الحياة والمجتمع، وهما... السرقة أو طلب المعونة مع الآخرين.

صحيح أن الفقراء صاغوا أمثالهم الخاصة.. أو أنها قيلت على لسانهم، لتبرير الحاجة معينة، ولعدم الإذعان المطلق لسلطة أصحاب المال ونفوذهم، عبر فلسفة مثالية تؤدي إلى زعزعة مكانة المال في المفهوم الاجتماعي، مؤكدة ما تراه أهم من المال، وما تراه سبباً في الحصول عليه، أي أنهم هنا عدوا في بعض الأمثال أن المال نتيجة، وليس سبباً، لذلك ذهبوا في الاهتمام بالسبب والدعوة إلى أعطائه أولوية على النتيجة القابلة للزوال.

المال يفنا والرجال تجيب

بيت رجال ولا بيت مال

هين فلوسك ولا تهين ناموسك

هين قرشك ولا تهين نفسك

في المال ولا في العيال

شاب في السوق ولا مال في الصندوق

أن مثل هذه النظرة، كما نرى قد قارنت المال بشيء آخر، كانت الغلبة فيه، ولهذا الشيء الآخر الذي لا يقدر بالمال، والذي يظل المال ثانوياً بالنسبة له، مثل (الرجال) النفس، الشرف، وكان القصد من مثل هذه المقارنة هو تقوية المنطق والحجة التي تعطي المال مرتبة لاحقة في الحياة الإنسانية.

لكن الأغنياء الذين قالوا أمثالهم الخاصة، أو أنها قيلت على لسانهم أيضاً، فإنهم كانوا أكثر واقعية، مترجمين في أمثالهم شواخص من الحياة التي كان للمال فيها دور بارز

مهم، أنهم لم يحاولوا فلسفة الأمور، ولم يذهبوا بعيداً في تفسير مفهوم المثل بالنسبة لهم، فجاءت أقوالهم واضحة وضوح مقصدهم وغاياتهم:

المال عديد الروح

طول ما الكيس مليان بكثروا الخلان

اللي معاه فلوس بتدلل

اللي بيدفع فلوسه بنت السلطان عروسه

الطفر بعمي القمار والمال بفتح العميان

إن مثل هذه النظرة للمال تضعه فوق أي اعتبار، وتتعامل معه على أنه الدواء لكل مرض، والغطاء لكل عيب أو قصور، والمقياس الذي تقاس به أهمية الآخرين ومكانتهم الاجتماعية، وانطلاقاً من هذا الفهم، فإن الأغنياء لم يتركوا وسيلة إلا وأتبعوها لمضاعفة رأسمالهم، الذي يضاعف لديهم السلطة والنفوذ، ويعزز مكانتهم الاجتماعية، وكل ذلك من عرق الفقراء وتعبهم، الذين ظلوا مقتنعين بأوضاعهم.

لذلك لا نستغرب أن يذهب الأغنياء إلى وضع قوانينهم الخاصة التي من شأنها المحافظة على أموالهم ومضاعفتها، واستعملوا من أجل ذلك الأمثال الشعبية كسلاح في معركتهم الاقتصادية، وعمموها لتنقل فلسفتهم للناس، وكان يهمهم أن يفهم الفقراء قصدهم وغايتهم، ويمكن القول أن فلسفتهم المدعومة بقوة المال ونفوذه، قد انتصرت على فلسفة الفقراء، وهذا ما نراه في مجموعة الأمثال التي تتحدث عن المال بطريقة لا تخلو من التهكم على منطق الفقراء:

المال السايب بيعلم الناس الحرمنة

قرشك الأبيض ليومك الأسود

الدراهم كالبراهيم بتسوي للنذل مقدار

كل يدري من المال فالح

المال بيجر مال والقمل بجر صبيان

لكن الفقراء احتفظوا بفلسفتهم أيضاً، وحاولوا إشاعتها من خلال أمثالهم التي كانوا حريصين على تعميمها، وأن افتقرت هذه الأمثال إلى السلاح الواقعي الحاد، الذي عجز عن الوقوف في وجه منطق الأغنياء.

مال تودعه بيعه أو أرحل عنه وخليه

اللي عنده مال ومحيره يشتري حمام ويطيره

لكن الفلاح الذي كان ينتمي غالباً لصف الفقراء، أدرك بتجربته، دورة الأيام، وعرف أن لا شيء يبقى على حاله، إلا وجه الله سبحانه وتعالى، لذلك نراه يصوغ أمثالاً لا تخلو مكن التهكم والسخرية على من يركض وراء اكتناز المال بالطرق غير المشروعة، مؤكداً في هذه الأمثال وعليه الواضح لدور المال وطبيعة الحياة، أنها فلسفة الفقراء المستندة إلى حكة بالغة.

يا ميخذ القرد على ماله بيروح المال ويظل القرد على حاله

الفاجر أكل مال التاجر

التدبير

لأن الفلاح يعيش على ما تنتجه أرضه، وهو في الغالب ينتظر الموسم ويتعامل مع الآخرين على أساسه، ولأن هذا الموسم غير مضمون دائماً، اعتماداً على (سنة ماسية وسنة شلتوتة) بالنسبة لمن يعتمد على الزيتون، أو من يعتمد على غير ذلك من المحاصيل، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإن المجتمع إجمالاً مجتمع مؤمن، حريص على أداء واجباته الدينية، ملتزماً بما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية، فغالباً ما تسمع من الفلاحين قول (أن المبذرين أخوان الشياطين) و(إن الله لا يحب المسرفين).

انطلاقاً من هذا، وربما من غيره أيضاً فقد جاء المثل الشعبي يحض على التدبير والاقتصاد وعدم الإسراف، ليس من قبيل البخل، بل تحوطاً لمصائب الزمن، وشتان بين البخل والتدبير، إذ جاءت أوصاف كثيرة ومهينة بحق البخل والبخلاء في الأمثال الشعبية.

وقد كان للموقف من الدين، وتمثل ما جاء من نصوص تدعو إلى التدبير، مكانته في الأمثال الشعبية، حيث نسمه (الله مع جوز المديرة) وكذلك (العبد في التفكير والله في التدبير) كل ذلك من أجل أن تدخر (قرشك الأبيض ليومك الأسود)، والتدبير بحد ذاته ينفع الأسرة ويستر حاجتها أمام الآخرين، فلا غرابة أن نسمع (صيت الغنى ولا صيت الفقر) لكن الشريعة السمحاء، لم تبن أحكامها على السمعة، بل على ما هو محسوس وملموس، لذلك قال المثل (اللي بحتاجه بيتك بيحرم على الجامع) وبنفس المعنى تقريباً قال: (ما نطلع من بيت مستحقين صدقة).

وقد كان انحياز المثل الشعبي واضحاً للمرأة المدبرة، باعتبارها المعنية مباشرة بتدبير شؤون البيت الداخلية، فقال المثل:

(من رقعت ما عريت ومن دبرت ما جاعت)

يلتقى معه بنفس المعنى والاتجاه المثل القائل (من وفر غداه لعشاه ما شمت فيه عداه)، لأن الأعداء لا بد وأن يشمتوا بالمحتاج.

التدبير ليس حالة مقتصرة على الفقراء وذوي الدخل المحدود، بل صفة أخلاقية واقتصادية يحتاجها المجتمع كله، بشرائحه المختلفة، الأغنياء والفقراء، والإقطاعيون والتجار والفلاحون، وهذا كان واضحاً في قول المثل (إن كنت ع باب بير بدك تدبير) مؤكداً على ضرورة وجود من يدعو لهذا (التدبير) ويشرف عليه ويتبناه (اللي مالو كبير مالو تدبير).

والتدبير ليس حالة سهلة، ولا يهتم بالتفاصيل والجزئيات، بل جاء المثل ليضع ركائز أساسية لهذا التدبير، تبدأ من الأصل لا من الفروع كقوله (مشتراه العبد ولا تربانه) وكذلك قوله (اللي بلمه السعدان بيوكله الجحش).

لكن هذا المثل ظل متناقضاً، نتيجة تناقض صالح المستفيدين منه والواقفيين وراء صياغته وتعميمه وانتشاره، ويتضح لنا ذلك جلياً من الصورة التالية:

برميه في الحارة ولا يعطيه للجارة

رغيف برغيف ولا يبات جارك جعان

وفي الوقت الذي دعا فيه إلى التدبير، فإنه شخص أسباب أو بعض أسباب التدبير، والتي قد تؤدي أحياناً إلى الخراب.

خراف ثنتين خرب بيتين

محذراً في الوقت نفسه من الطمع أو الحسد أو الغيرة، داعياً إلى أن يكتفي المرء بما لديه.

طبخته ع النار وعينه ع طبخة جاره

عندنا عيش وعندكم عيش وفراغة العين ليش

لكن قد تكون هناك أسباب خارجة عن إرادة الإنسان وسيطرته، تجعل التدبير غير ممكن بالنسبة إليه، وهذا قد يعود إلى الأسرة أو التربية أو العلاقات الأخلاقية السائدة في الوسط الذي يعيش فيه:

أنا بوفر والقرد بعفر

استكبرها ولو عجرة

شو بهمه؟ مصروفه من أمه

لكن هذه الحالة لن تكون القاعدة حتماً، بل هي شهادة عن طبيعة المجتمع الذي ينتمي إليه صائغ المثل الذي قال أيضاً:

بصلة المحب خروف

لقمة هنية بتكفي ميه

كثير رايح وقليل مكفي

الجود من الموجود

شو طبخت العمشة جوزها بتعشى

ولم ينس المثل الشعبي الجانب الأخلاقي التربوي في العلاقة بين التدبير والتبذير، والعلاقة بين الحاجة واحتمالها أو مدّ اليد للاستدانة من الغير، بما يعنيه ذلك من موقف اجتماعي يرفضه المجتمع.

إن كان حبيبك عسل متلحسوش كله

العين ما بتشبع إلا من التراب

مؤكداً على النقيض الأفضل والأكثر قبولاً بالنسبة للمواطن وأسرته ومجتمعه:

صبرك ع نفسك ولا صبر الناس عليك

أن مال عليك الدهر عليك بالأهل

لأن الشخص وأهله، ونتيجة علاقات الدم والقربى، هذه العلاقة التي قال عنها المثل (عمر الدم ما بيصير ميه)، بتعد الشخص عن (المعايرة) وتحافظ إلى حد كبير على أن يظل بيته مستوراً غير مكشوف لعيون وألسنة الآخرين، فسمعة الشخص هي رأسماله الأساسي.

وللمحافظة على رأس المال هذا، كانت دعوة المثل وإصراره على التدبير والاقتصاد، والابتعاد بشتى الوسائل عن الإسراف والتبذير، باعتباره حالة مرفوضة دينياً واجتماعياً، وأن المرأة المدبرة، أعلم بشؤون بيتها وإمكانات زوجها وأسرتها، فهي مدعوة دائماً إلى احتمالية المفاجأة، التي من الممكن أن تسبب لها ولزوجها إحراجاً بشكل أو بآخر، لذلك لا بد لها أن تتمثل بالقول:

بين السبع بخلاش من العظام

الأرض

من خلال استعراض العدد الكبير من الأمثال الشعبية المتوارثة، يبدو جلياً أن عدد الأمثال التي تعاملت مع موضوعة الأرض، وما تعنيه من صورة أخرى للوطن والانتماء، يبدو العدد قليلاً جداً إذا ما قورن بعدد الأمثال التي تعاملت مع موضوعات أخرى، أقل شأناً وأدنى من حيث الأهمية.

ويتضح من خلال قراءة الأمثال المتوفرة، أن الفلاحين هم الذين يقفون وراء صياغة العدد الأكبر من هذه الأمثال وتعميمها، ومن هنا، يمكن استنتاج ما يلي:

- أن الفلاحين الذين كانوا في الغالب يعملون أجراء عند الإقطاعيين، لم يكونوا معنيين بالانتماء للأرض التي يعملون فيها، وتعود خيراتها لغيرهم، ولذلك تبدو حالة الانتماء بين هؤلاء وبين الأرض التي يعيشون فوقها، حالة ضعيفة.
- إن الأمثال في الغالب تقال تعبيراً عن تجربة، وترجمة لواقع معاش، لذلك فإن الفلاحين قد عجزوا في تمثل هذه الحالة وصياغة الأمثال الخاصة بها.
- إن الإقطاعيين الذين يملكون الأرض وما عليها، لم يكونوا معنيين بصياغة أمثالهم، وخاصة وأن علاقتهم بالأرض تتمثل في ما يجنونه من أرباحها، لذلك كان من السهل عليهم أن تنتقل ملكية الأرض من إقطاعي إلى آخر، إذا ما رأى مصلحته في ذلك.

غير أن هذه القاعدة، تملك شواذها أيضاً، حين نجد أنفسنا أمام واحد من الأمثال الشعبية، الذي يمثل جوهر الوعي في حالة الصراع الطبقي في المجتمع، ويعطي صورة واضحة متقدمة من صور الانتماء الواعي، حيث يقول:

الأرض ما يحرثها غير عجولها

ويبدو الإسقاط واضحاً، حين نعرف أن العجول المقصودة هنا هم (الفلاحون) حصراً، وإن الإقطاعيين، وان كانوا المالكين لهذه الأرض، إلا أنهم غرباء عن نبضها وحياتها.

وإذا كان الذهب، بما يعنيه من ثروة بعيداً عن متناول يد الفقراء، فإن صائغي المثل ذهبوا إلى تشبيه الأرض بالذهب، ووضعوا فيه نظرتهم لهذه الثروة، حيث قالوا:

الأرض زي الذهب ما بتنباع

أي يجب الاهتمام بها، وتوريثها من جيل إلى جيل، فالأشياء التي تخضع للبيع هي سلع زائلة، أما الأرض فيجب أن تكون غير ذلك، باعتبارها مصدراً دائماً للرزق والحياة.

والأرض التي تستحق الانتماء إليها والدفاع عنها، هي الأرض التي تستقبل عرف زراعها، وتستحوذ على جهدهم حتى تقدم لهم أسباب الحياة التي تعينهم على مواجهة عقبات الزمن، لذلك فقد ربطوا في الأمثال بين الأرض التي تجود بالخيرات والمرأة الجميلة، أما المرأة القبيحة المنبوذة عند أهلها ومجتمعها، فهي دائماً:

مثل الأرض البور

أي الأرض التي لا فائدة منها، ولا تعود على أحد بالخير والمنفعة